تقديم

«الخزانة التي أقذف فيها أفكاري الوحشية»

لقد بقيت الرواية الأولى لصامويل بيكيت «حلم جميل لامرأة في منتصف العمر» بعيدة عن النشر لستين عاماً، وكان قد كتبها في فندق تريانون Trianon Hotel، القائم في شارع فوجيرارد Rue Vaugirard في باريس، خلال صيف 1932 حينما كان عمر المؤلف ستة وعشرين عاماً.

في ذلك الوقت، كان بيكيت قد نشر كتابات من بينها شعره الذي حصل على جائزة «هورسكوب» Whoroscope والذي نُشر في عام 1930، ومقالتين نقديتين: «دانت Dante... برونو Bruno... فيكو Vico... وجويس Joyce» التي نُشرت في 1929 ضمن عملنا المُشترك «فحصنا المُتعلق بمجموعة من المقالات ورسالتين بخصوص عمل جويس يقظة فنغان» ضمن العمل أثناء تقدمه، وكتابه عن بروست، المنشور في عام 1931. ثماني قصائد وعدد من نصوصه النثرية القصيرة، ومسرحية ساخرة تحت عنوان ««Che Sciagura 1929))، ثلاثة قطع نثرية، «رفع مريم العذراء إلى السماء» «Assumption»، «المأخوذ» «The possessed»، «نص» «Text» و«سيداندو وغيسندو» «Sedendo et Quiesscendo»؛ كما ينبغي ضم هذين النصين الأخيرين إلى «حلم»، بالإضافة إلى بعض القصائد النثرية. لذا يعود هذا العمل الخيالي إلى الجذور الأعمق للمؤلف في أيامه الباكرة وتقدمه نحو الكتابات المستقبلية وذلك عبر تكهنه بجزء كبير مما سيعقب ذلك في الشعر، النثر والدراما: «شك، يأس واستجداء، هل سأحرك كرسي استحمامي ليبلغ عظمة هؤلاء»؟ تطغى بعض العناصر المنتمية نصفياً للسيرة الذاتية على صورة بيلكا Belacqua،

الشخصية الرئيسية للكتاب، ومع ذلك لا ينبغي المبالغة في تقديرها. إن الاتساع اللازمني، الذي سيصبح ما يُميز عمل بيكيت، يمنح رواية «حلم» قيمة شمولية لكي يُحدد القارىء قيمتها، يسبر غورها ويتمتع بها.

لقد سلمَ صامويل بيكيت «حلم» إلى عدد من الناشرين دون أن يوفق في نشرها. كان يعرف أن إيرلندا لا تقدم أي أمل لمن هو ضد المذهب العقلاني للكاثوليكية الإيرلندية في ذلك الوقت، كما أن غياب العقلانية الموضوعية في الوضعية الصارمة التي تفرضها إدارة الرقابة الإيرلندية، والتي من المؤكد أنها لن توافق على رواية مُختلفة كرواية «حلم جميل لامرأة في منتصف العمر». في وقت لاحق، سيوجه نقداً لاذعاً لتلك الإدارة عبر مقالة طريفة، تحمل عنوان «الرقابة في السورستات» «Censorship in the Saorstat» (1935)، في الوقت الذي كان هو نفسه ضحية بسبب التحريم الذي حصل لروايته More Pricks than Kicks. لم يُظهر ناشرو لندن إقداماً أكبر عندما ذهب إليهم في عام 1933، آملاً أن يجد تعاطفاً من أحدهم مع «حلم».

بدلاً من مواصلة معركة النشر العقيمة تلك، قرر صامويل بيكيت ضم عدد من قصص «حلم» إلى بعض آخر، بما فيها «دانتي والسرطان البحري» «Dante and the Lobster» التي كانت قد نُشرت في المجلة الباريسية This Quarter في شهر ديسمبر 1932. كانت مجموعة القصص هذه قد نُشرت في لندن عام 1934 مثل روايته الأخرى More Kicks than Pricks. ذلك لأنه لم يكن لديه الوقت حينها ليقرر بنفسه رفض «حلم» كما كان يأمل، بالإضافة إلى ذلك، برؤيتها منشورة، بالرغم من أنه في مستقبل غير محدد في تاريخه، قد أعلن عن ذلك في More Kicks than Kicks.

إن قوى الإيحاء لهذا الشخص الإيطالي الإيرلندي عظيمة ببساطة، وإذا ما كانت روايته «حلم جميل لامرأة في منتصف العمر» قد توقفت عند المستوى الأولي من العمل منذ عشرة أو خمسة عشرة عاماً، ولم تصل قط إلى الجمهور، فذلك لأنها كما يقول والتر Walter مشدودة، ينبغي علينا التأكد من الحصول عليها وإلقاء نظرة عليها في كل الأحوال.

بعد مرور العديد من الأعوام اللاحقة، كان بإمكان بيكيت التعبير عن

شكوكه القوية وسوء حظه في ما يتعلق بخلق المزيد من أيام الفتوة، كما هو الأمر في الواقع بالنسبة للعديد المنشور من عمله («كتاباتي الأخرى بالكاد قد نشف حبرها وإذا بها تتمرد عليَّ»)، بما في ذلك More Kicks than Kicks، التي مَنع إعادة طبعها لعدة سنوات. ولأنه كان منتبهاً حيال سوء الحظ ذاك، وواعياً أيضاً بمشاعره العميقة إزاء «حلم» لم تكن واضحة تماماً، بل وحتى عدائية مثلما ترك ذلك يظهر، لهذا لم يأخذ قرار نشر «حلم» بخفة. في الحقيقة، إذا ما كانت رواية «حلم» تطال الجمهور اليوم لأنها «محتومة»، فذلك لأنها كذلك، وفقاً لوصية بيكيت نفسه، التي عبر عنها من خلال كلامه معي بين عامي 1975 و1989.

• عندما شرعت بكتابة «بلاد بيكيت: إيرلندا صامويل بيكيت 1975، أدركت كم سيكون ناقصاً الكتاب الذي يدعي توضيح أصول الكثير من كتابات صامويل بيكيت، لو كانت «حلم»، الرواية التي توصف على أنها تحتل مرتبة عالية مقارنة بأغلبية ما كتبه عن إيرلندا، التي لم يجر الرجوع إليها. لقد منحني صلاحية أن أقتبس من «حلم جميل لامرأة في منتصف العمر» كل ما أرغب فيه. كانت قراءتي لنسخة طبق الأصل من «حلم» عن المخطوطة، في «أرشيف بيكيت» في «قراءة الجامعة»، بالضرورة سريعة في حينها، غير أنها أدت إلى كثير من النقاشات مع صامويل بيكيت من حول العمل. خاصة أنه، كما أتذكر، كان يرغب في ردة فعل رجل تجاوز الثلاثين عاماً بخصوص «حلم»، أو، مثلما أسمى ذلك «الخزانة التي أقذف فيها أفكاري الوحشية». كان اهتمامه دقيقاً تماماً، كما أعتقد، لأنه نسي الكثير من تفاصيل «حلم» وبالتالي سمح لنا ذلك بالتعثر بلطف بالحنين إلى دبلن. كنا قد تناقشنا، في تلك اللقاءات بيننا في باريس، مع ما كان يسميه «سرقاته» و«الخزانة» وإذا ما بقي شيء ما جدير بالاحتفاظ به لمدة ما. كانت تلك النقاشات بمنزلة وسيلة للتذكر، لكنه لم يكن قادراً على التسامح مع ذكريات الماضي إذا ما أصبح الألم حاداً. فعندما أطلعته، مثلاً، على الصورة التي عثرت عليها لبل شانون Bill Shannon، ساعي البريد في رواية «حلم» –وفيما بعد في رواية واط– كان وجهه قد تهلل أولاً بالفرح، ثم تفكك بالقلق، كما أنه كان يعرف أني احترمت حاجة مغادرتنا حتى يتمكن من البقاء وحيداً مع نفسه.

في عام 1986، طلب مني صامويل بيكيت زيارته في باريس لكي نتناقش حول «حلم». كان مترو‌ياً، كما أخبرني، ثم سألني ما هي الطريقة الفضلى لمساعدة صديق كان يرغب في أن يعطيه شيئاً ما للنشر، هل يمكن أن يكون ذلك رواية «حلم». لم نتوصل، ولم نحاول الوصول إلى قرار في ذلك المساء، ولم نفعل سوى الثرثرة من حول أشياء تافهة ومجانية. عندما عدت ثانية بعد فترة قصيرة من ذلك المساء، كان قد أتخذ قراره. لم يكن بمقدوره مواجهة ألم العودة ثانية إلى «الخزانة» حيث تم الاحتفاظ جيداً بأفكاره الوحشية في أيام شبابه، سواء كانت سعيدة أو مقطبة الحاجبين من الأسى.

بعد فترة قصيرة، أخبرني أنه ينبغي نشر «حلم»، لكنه لا يرغب في حدوث ذلك إلا بعد أن يكون قد رحل «لوقت معين». لقد طلب مني الاحتفاظ «بمفتاح» الخزانة إلى أن أفكر أن الوقت قد حان.

بقيت مخطوطة «حلم» المكتوبة على آلة الكتابة مع صامويل بيكيت حتى عام 1961 إلى أن أعطاها، مع نصوص أخرى غيرها للورنس أ. هارفي Lawrence E. Harvey من أجل مساعدته في كتابة مقاله الذي يتركز على موضوع واحد فقط، صامويل بيكيت: من شاعر وناقد لأجمل سيرة شخصية منشورة عن بيكيت. سلمَ هارفي المخطوطة لمدرسة دارتموث Dartmouth College، نيو همشير New Hamshire في 1971، مشيراً إلى أنه فعل ذلك لأنه يعتبر «حلم» «جديرة بحكم ما تقدمه من رؤى داخلية عبر مزاج، فطنة، موهبة واهتمامات بيكيت الشاب وتبني النقطة الضرورية لانطلاقة تشهد على تطوره ككاتب».

في الحقيقة، تشكل رواية «حلم» ذلك بالتأكيد، بل أكثر منه. إنها إنجاز أدبي رئيسي وإن ذلك التقدير، إلى جانب رغبة بيكيت في ما يتعلق بالنشر، جعلا المُنفذ لتلك الرغبة وصديقه، جيروم لندن Jérôme Lindon، يخولني بإعداد «حلم» للنشر.

لم تكن «حلم» مُتاحة حتى وقت قريب إلاّ لطلاب الجامعات والباحثين الذين يتمكنون من متابعة المخطوطة الأصلية في أرشيف دارتموث، أو فيما بعد النسخة المكتوبة على الطابعة في أرشيف بيكيت في Reading

University. وقد أدى ذلك حتماً إلى حالة من عدم الاكتفاء، لهذا تم أخذ الكثير من الاقتباسات ونشرها، يرافقها تعقيب مقبول نوعاً ما، أي نوع من المُقتطفات التي تَحرمُ القارىء من التقييم الموضوعي، غير المُنحرف والشخصي للرواية بكاملها. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لمُقتطفات كهذه تقديم تصور خطر بالنسبة للعمل برمته.

فصامويل بيكيت نفسه، كما أشرتُ إلى ذلك، «يسرقُ قليلاً من الخزانة»، التي استخدمها كنقطة انطلاق للكثير من أعماله اللاحقة –الأيام السعيدة Happy Days و«شريط كراب الأخير» Krapp's Last Tape تخطر على البال. كما كانت أيضاً بمنزلة ذخيرة لبعض الكتابات المبكرة– ديوان الشعر «Enueg I» و«دورتمندر» «Dortmunder» و«آلب» «Albe» و«قبعة براملينين لبنت مثقف متلاشٍ» «Casket of parlinen for a Daughter of a Disspated Mandarin» كأمثلة. تظهر أجزاء جوهرية من «حلم» وبالنص تقريباً في رواية «More Kicks than Pricks»، والأمثلة الحية عن ذلك «البطاقة الناعمة لسميرالدينا» «The Smeraldina's Billet Doux»، و«دنغ دونغ» «Ding Dong» و«ليلة ندية» «A Wet Night»». هنا أيضاً يمكن لمقتطفات كهذه أن لا تقدم أي شيء سوى فكرة ضيقة وشاحبة عن الرواية بكاملها. تُمثل رواية More Pricks than Kicks تشكيلة من النقوش الصغيرة لحياة دبلن؛ فيما تتمتع «حلم جميل لامرأة في منتصف العمر» بقيمة الشكل الكامل وبنية الرواية عن شاب، حالات عشقه وسفراته في أوروبا. توفر لنا «حلم» بعض الرؤى الداخلية الثمينة، أركولوجية تقريباً، عبر تطور الذائقة الجمالية لذهن مُتميز، كما أنها تكشف عن الطريق الذي ستقتفيه الأعمال اللاحقة. فنحن نشاهد، على سبيل المثال، نزاع الفنان مع نفسه ومع الفنّ:

فجأة اندفن العقل، حينئذ تحرك بغضب وبطاقة حماسية، بالعدو والغطس باتجاه الأموات، كأنه النمط النهائي وعنصر الإبداع برمته، البروتون الخاص به its proton، غير القابل للتواصل، لكن كان ثمة جرذ غير مرئي هناك، يتململ بحركات عصبية وإصرار على سطح الفن.

كما كان صامويل بيكيت يتصارع مع تجربة الجوهر الفنيّ، حيث أصبحت الحلول مرئية:

... نعلن ونبقى ثابتين (على الأقل في ما يخص هذا المقطع) أن الموضوع الذي يصبح غير مرئي أمام عيونكم هو الأكثر تألقاً والأفضل، كما يُقال.

الشكل المُستقبلي للكتابة، إذا لم يكن واضحاً سلفاً عبر ثراء «حلم»، فيمكن وعلى الرغم من ذلك، رؤيته وهو في طريقه للتشكل:

كنتُ أتكلم حول شيء ما لم تكن لديك ولا يمكن أن تكون لديك فكرة عنه، اللاتماسك المتواصل كما عبر عنه وقاله رامبو وبتهوفن Rimbaud et Beethoven. تقدمُ نحوي اسميهما. تُستخدم مفردات عبارتيهما فقط لتحديد واقعية المناطق الجنونية للصمت.

فقط لتحديد واقعية المناطق الجنونية للصمت. في الحقيقة، لم يتحقق كليةً تعبير رؤيته المُتفردة إلا في وقت متأخر، عندما عاد ثانية روحياً إلى «الخزانة» حتى يعثر مرة ثانية فيها على طريقه إلى الأمام:

ستكون تجربة قارئي ما بين الجمل، في الصمت، المتواصل عبر مسافات، وليس النهايات، للرواية، ما بين الزهور التي لا يمكنها أن تتزامن، التضاد (لا شيء أكثر بساطة من التضاد) مواسم الكلمات، ستكون تجربته بمنزلة تهديد، مُعجزة، ذاكرة، لمسيرة لا يمكن وصفها.

وعلى أي حال، لا ينبغي التعامل مع «حلم» من خلال إلقاء نظرة أخيرة تنطلق من زاوية نظر لمصلحة عمل لصامويل الكامل المتوفر لنا الآن. فمها يكن ناتج المؤلف في كتاباته الأخيرة، تحتل رواية «حلم» مكانها الخاص، وتفرضُ نفسها علينا بحكم ثرائها المُترف، في أوج تفتحها «كطاقة حماس»، مثلما يقول بيلكا في الحقيقة. لقد أوحى هارفي Harvey، بالطريقة الأمثل، «بالثراء اللفظي»، و«المخيلة الفطرية»، و«المهارة الذهنية» التي نعثر عليها في «حلم». كان الفتى بيكيت مُبتهجاً بالكلمات، فرحاً باستخدامه لعدة لغات، وغير ثمل بالغبطة الكبيرة لإبداعه لكلمات جديدة وصياغة عبارات جديدة تخلت عن «العدو والغطس باتجاه الأموات». يكمن الكثير من ثراء «حلم» العالي المستوى في ذلك الاضطراب الكبير في اللغة، وفي الابتكارات البعيدة التي لن تكون مجرد تمارين ذهنية، لكنها بطريقة جوهرية أكبر من ناحية التعبير وعمق وسمة صامويل بيكيت بما يتعلق بالمعنى

الحياتي للدعابة. إن رواية «حلم» بمنزلة كتاب عن الدعابة –توقف الضحك المتلاحق– الذي يُعطي سلفاً، كباقي عمله اللاحق، فكرة خاطئة ويؤدي إلى عدم فهم جدي يتركز في القول إن عمله مقصور على الجانب المعتم والأسود فقط.

نحتاج هنا إلى بضع كلمات حول عملية نشر «حلم». أولاً للتعبير عن الدين حيال شريكتي في النشر أديث فورنييه Edith Fornier، صديقة صامويل بيكيت طيلة حياته، التي قامت بترجمة بعض أعماله من الإنجليزية إلى الفرنسية. والتي بدون معونتها، ما كنتُ قادراً على إكمال مهمة نشرها التي أصبحت أكثر تعقيداً عما كنتُ أتوقعه في الأصل. وبالدقة، لأنه جرى التعامل مع إبداع وثراء «حلم» باعتبارهما مجرد تقرير لفظي، إذ لم نكن مهووسين بقراءة بروفات المطبعة فحسب –التي هي وظيفة نقوم بها مباشرة في الوضع العادي–، وإنما أهم من ذلك، كان علينا نقاش الظلال والتفاصيل التي كانت تنطوي سلفاً على الكثير من الأخطاء الكتابية التي قام بها صامويل بيكيت إما تعمداً كلعب على الكلمات وصياغاتها، ككلمة «ماركريتاس» «margaritas» الثمينة، التي لا ينبغي أن تضيع أثناء تقدم القراءة. في «حلم» يتخطى صامويل بيكيت العوارض اللغوية ما بين الإنجليزية –والإنجليزية كما هي مستخدمة في إيرلندا– إلى الفرنسية، ومن الألمانية إلى الإيطالية والإسبانية، لكي يرجع إلى اللاتينية. كما أنه جرب بالكلمات وبصورة متعمدة التباهي بالتقليد النحوي الذي كان يلويه أحياناً بطريقة مفضوحة في الحقيقة إلى حد أنه في مناسبات عديدة لا يمكن لغيره أن يقول ما الذي كان يقصدُ بذلك. في أمثلة كهذه، يعتمد هذا على حدود معرفتنا وفهمنا لصامويل بيكيت، الإنسان، ولكتابته أيضاً. وإذا ما أخطأنا بحقه، فاللوم يقعُ علينا.

لقد اتخذنا القرار بشطب قطع صغيرة مرتين فقط من النص، حينما يكون هنالك شبه تطابق ما بين مقطعين، يكون أولهما أضعف بوضوح من الآخر في نسخته المُحسنة. ذلك لأنه ليس ثمة من غرض للتطابق، ولكان صامويل بيكيت، كما نعتقد، قد عمل نفس ما قمنا نحن به أثناء قراءة بروفات الطباعة. أولاً، في المقطع القائم في صفحتي 68–70 (ألم أكن شاحباً؟ وحتى «خوذة العبودية» فضلنا الإبقاء عليها بشكلها المقتضب، لاسيما أن المقطع الذي

يأتي بعد الفقرة التي تنتهي بـ «... كانت تعيش كبصقة لـ Madonna Lucerzia del fee في الصفحة رقم 15. ثانياً، لأن نسخة دارتموث Dartmouth من المخطوطة تحتوي على نسختين من خاتمة الرواية، فالجزء الأخير منها يبدو قد كُتبَ بخط يد صامويل بيكيت. لقد اخترنا نحن الأخير، الذي لا يختلف من حيث المعنى عن النسخة الأولى، بل هو أفضل منها.

كما كنا حذرين تماماً خشية تحطيم مزاج صامويل بيكيت في التنقيط ووضع المسافات عبر التصحيحات التي نقوم بها. في نسخته المكتوبة على آلة الكتابة، كان يُبالغ بالمسافات الزمنية، ويُدخل فصلاً إضافياً، وكذلك تغييرات المزاج عبر التنويع بالفواصل الخطية والفراغات. يمكن بسهولة تجاوز هذه الحيلة المرهفة، لكننا نعتقد بأهمية الحفاظ عليها، مهما بدت غير اعتيادية في حينها. «فحلم» هي، في نهاية المطاف، كتاب غير عادي.

كذلك كنا أوفياء في ما يتعلق باستخدامه للحروف المائلة italics، ولكن في المكان المناسب. بتروٍ، بسبب غزارة التنوعات اللغوية، فصامويل بيكيت يرفض تطبيق الحروف المائلة على كلمة أجنبية، ولا يستخدمها إلا من أجل التشديد.

إن المخطوطة التي عدنا قراءتها هي الأصلية والموجودة في أرشيف مدرسة دارتموث، التي كتبها وصححها صامويل بيكيت على آلة الكتابة، فيما كانت نسخة Reading، التي لم يستنسخها بنفسه والتي تختلف في بعض جوانبها عن مخطوطة دارتموث الأصلية، والتي رجعنا لها بالرغم من ذلك.

مهما كان استحقاق أو عدم الاستحقاق الذي يحكم عبر أساتذة الجامعات على «حلم»، التي نقدمها بعد ستين عاماً من كتابتها، وقد قمنا بذلك عارفين أنها ستجلب ثراء مُعتبراً للكثيرين، وربما للشباب بوجه خاص، ذلك لأن الكتاب لم يشخ لاسيما أنه كتاب دعابة وحساسية، كتاب أمل وموسيقى، لهذا يمكن قراءة «حلم» على مستويين بالأقل. باقتفائه للتماثل الموسيقي، يمكن للقارىء ببساطة دمدمة النبرة لأن النغمة ساحرة، أو بمقدوره، إذا ما كان يتمتع بالذهنية التي تقوم بذلك، دراسة الموسيقى، ولا يخفق في أن يكون مسحوراً. إنه أيضاً كتاب اللون، الذي يستولي عليه

عبر تقنية صامويل بيكيت الذي يوحي باللون ذي المستوى المتفوق بمزاجه وكثافته اللونية الفريدة.

كلمة شكر خاصة لجيروم لندن Jérôme Lindon، الذي جعل من هذا المشروع ممكناً، ولبول بنيت Paul Bennet، الذي رافق بصبر العديد من التغيرات التي أجريناها على النسخ المكتوبة على الآلة الكاتبة، كما نتقدم بالشكر أيضاً لدار نشر Board of Black Cat Press، وبصورة أخص لتيد وأرسولا أوبرين Tid and Arsula O'Brien، وتونا Tona، فكل واحد منهم قد أدركَ أهمية «حلم». كذلك أنا مدين لكل من كات شل Kate Chill، كارولين مورفي Caroline Murphy وإدوارد بيكيت Edward Beckett، جون كالدر John Calder ولمكتبة مدرسة دارتموث، ونيو هامشير New Hampshir وأرشيف بيكيت، وكذلك لـ Reading University. كل على طريقته الخاصة، ساهم في إيصال هذه الرواية الباذخة إلى يقظتها الكاملة.

Eoin O'Brien

Seapoint

يوليو 1992.

سمعت ألف رجل يروي،
أن هناك غبطة في السماء،
وألماً في الجحيم لكن-

جيوفري شوسير
Geoffrey Chaucer

واحد

انظر يا بيلكا إلى طفل مُتخم وهو يُدور دراجته، أسرع فأسرع، فمه فاغر ومنخراه يتوسعان، تحت حاجز الزعرور البريّ خلف مروحية فندلاتر Findlater's van، أسرع فأسرع حد طوفانه إلى جانب الحصان بطوله، الحصان الأسود ذي الردف السمين والمبلل. سوطه، رجل المروحة vanman، اضربه برفق، اصفعه، لكمة من شريحة لحم لسامبو الدهين fat Sambo. بتشنج، كاضطراب الريش، ذيل الأقواس المتدفق للـ mard. آه...!

الأكثر من ذلك هو مفاجأة بعد سنوات لاحقة وهو يتسلق الأشجار في الريف والمدينة هابطاً من حبل الألعاب الرياضية.

اثنان

جلس بيلكا على ساند قائم في نهاية كارليل بير Carlyle Pier تحت رذاذ المطر لأنه كان يحب بدءاً من حزام وسذاجة بنت اسمها سمرالدينا–ريما Sameraldina–Rima التي التقى بها في مساء حيث كان الحظ قد شاء أن يكون متعباً ووجهها أكثر جمالاً من كونه غبياً. كان تعبه في تلك المناسبة المحتومة قد جعله يولي اهتمامه بوجهها وحده، وذلك الجانب المشرق بالقدر الذي كان بإمكانه أن يظهر بإشعاع لا أرضي، لقد نسي نفسه ولم يرمِ بكل شيء ويُلق مرساته في الخميرة الهادئة لصدرها الذي استخلصه بسرعة من جوانبها التي لم تترك أي شيء سوى الموت المرغوب فيه، وكذلك الموت الذي كان بمقدوره لو أهملَ إبراهيم Abraham's الذهاب بلطف تام إلى عالمه الضعيف حيث كله إغواء وفروسية. قبل أن يكون بإمكانه الرؤية عبر عاطفته نحوها أشارت إلى أنها لم تكن تعبأ بأي شيء في السماء أو الأرض في الأسفل أو المياه تحت الأرض كما تهتم بموسيقى باخ Bach وبأنها ألزمت نفسها مرة وإلى الأبد تقريباً في أن لا تختار أي مكان آخر غير فيينا Vienna لتعلم العزف على البيانو. كانت نتيجة ذلك هي وضع الخميرة من الآن فصاعداً في مصاصات سارغاسو sargasso، وتوقعه في الشبك.

الآن إذاً هو يتدلى من فوق الساند القائم تحت رذاذ المطر المبارك بعد السائل المنوي للوداع، يداه المغطاتان بالهلام في حضنه، ورأسه الساقط فوق يديه، يضخ القليل من المادة الضبابية blirt. كان جالساً لكي يشتغل بذلك التدفق الضئيل من الدموع الذي سيعتقه. حينما شعر بمجيئها ضغط لإيقاف عقله وجعلها تستقر. أولاً الحركة الدائرية الحذرة لها في عقله إلى أن ارتطمت وامتدت بفكرتها، حينئذ وليس في لحظة قبلها كان

الفراغ العنيف والأبيض لعقله حتى هدوء ذلك التدفق، الذي جرت إعاقته وأرجعَ إلى دا كابو da capo. لقد وجدَ أن أفضل طريقة لتدوير المكبس في المقام الأول تكمن في التفكير بالقبعة التي خلعتها لكي تتمايل حينما غدت السفينة قريبة. كانت الشمس قد بيضتها وحولت لونها من الأخضر إلى الأخضر الضارب نحو الرمادي المُثير تماماً، وكانت دائماً، من اللحظة الأولى التي صفقَ عينيه نحوها، قد أثر فيه كونها المادة الأجمل، اليائسة والمتحركة. ربما كانت مصنوعة من خصلات شعر كثيف ينمو في كل مرة ما إن تحركها بيدها الصغيرة من فوقه بحركة غبية كآلية الساعة بذراعها، صعوداً ونزولاً، لا لكي تهيجه كما يُهيج منديل، لكنها تمسك عليه من الوسط لرفعه وإنزاله بذراع يابسة كأنها ذاهبة للقيام بتمرين الأثقال. إن أقل رجوع لفكرته الآن إلى هزات الوداع تلك، والكآبة الشنيعة ليدها وهي تقبض على تلك القبعة الشاحبة التي تشبه المدق الصاعد والنازل، لذا كانت كل ضربة من ضربات تلك الذراع المُتيبسة بدت كأنها تنهق في قلبه وتدفعها بعيداً عن نظره، كما أنها كانت كافية لخض عقله في العاصفة الضرورية للبؤس. لقد عثرَ على ذلك بعد بضع بدايات مزيفة. لذا، وبعد أن ثبت التقنية، جلس ليشتغل نفسه إلى حد أقل قطرة من القذف، يسنده إلى الخلف ويعيده ثانية إلى نفس حركة الفيض، وينتظر مع عقله الفارغ لكي يضعها جانباً، حينئذ وعندما يرجع كل شيء إلى وضعيته السابقة يعطيه ضربة سوط من فوق القبعة التراجيدية وإعطاء إشارات الوداع ويشرع بكل شيء من جديد. جلسَ محنياً على الساند القائم في مساء رذاذ المطر، وراح يدفع ويقوي الغليان بهذه الطريقة الغريبة، كما كانت يداه الاثنتان رطبتين كشريحتين من سمك القد في حضنه. حتى وصوله إلى الإزعاج كان صنم تحريكها لقبعتها بتلك الطريقة قد جعلنا (تنازل، تنازلها ثم تنازلي، أنا) نبلغ ذلك الحد من الآلام لوصفها، غير أنها لم تتحرك. كان يضرب بقسوة كالعادة، بعد كل خفوت وانتظار، ولم يحدث أي شيء. كانت أسطوانات ذهنه ترقد بأمان. كان ذلك شيئاً كريهاً بالنسبة له إذا ما شئتم، تعطلاً كاملاً لعمل كهذا. ألقى نظرة من حوله بنوع من الفزع إزاء صورة قد تشرع بتحريك الأشياء ثانية: رازيما Rasima عند النظر في عينيها الغائرتين

عند حوالي نهاية المساء، عبر نافذة نصف دائرية معتمة من فوق الحاجب وتحت خصلات الشعر الأسود النامية نحو الأسفل والكثيفة من جانب إلى جانب آخر من الصدغين، الوادي الصغير عند جذر الأنف التي كانت معتادةً على السماح له بصورة ملموسة ومسنودة بالسبابة بلبادها وظفرها. رقدَ عقله بهدوء وقد نشفَ بئر الدموع.

ما إن اعترف مع نفسه أنه ليس هناك ما يمكن عمله، وأنه قد جففَ نفسه في حجرة عمل التسامي تلك، وإذا بالهلع يقبض عليه بصبغته الأشد قتامة، فيما كانت سمرالدينالغيا Sameraldinalgia قد تم ابتلاعها مباشرة من قبل حزن كبير لأنه كان ابن آدم son of Adam ولعنه بعقل لا يمكن أن يكون ثانوياً. علمَ عقله يديه الآن أن لا تكونا هادئتين ومترهلتين في حضنه وتحاولان القيام بتشنجات ملائمة قليلاً، وقد أطاعتا ذلك على الفور؛ لكن عندما علمَ عقله أن يضخ قليلاً من الدموع كتعزية للبنت التي خلفته من ورائها، آنذاك بدأ بالمقاومة. كان ذلك بمنزلة ألم مُباغت ومعتم تماماً. ما زال على الساند القائم تحت رذاذ المطر الذي لا يمكن القضاء عليه قبل ذهاب كل واحد إلى بيته، عاصراً يديه بحكم نفاد حيلته، ومن غير الاهتمام بسمرالدينا – ريما، لأنه صار يحدق بهذا الأسى الجديد.

في ذات الوقت ثمة شيطان فلزي بأقل كثير من الضوء وبظهور عالٍ ووصف مقتدر قد تحكم بوقته إلى أن أطلق غم آدم رصاصته كما تفعل أحزان بيلكا، وخلفه منزوع السلاح في أزعج ظرف. بالنسبة له كان الهجران الأكبر بمنزلة النحاس الخطي وتدخلاته غير المنطقية. بالنسبة للعقل أن يحدق المرء بكارثة أو على خلاف الكارثة موشحاً بالسواد لا بأس بذلك؛ وبطبيعة الحال بالنسبة للعقل أن يكون في الرحم ومدفوناً بذات الطريقة التي سيكون لدينا أكثر من مناسبة واحدة نقدر فيها أن ذلك أفضل حتى، لذة حقيقية. لكن هذا التحريف الوقح بطريقة مروعة لمؤخرة العالم، فكك آليته القانطة وساقه عالياً وناشفاً من قناته المريحة، كما كان حلاً يتعلق بالتواصلية التي يرفض منحها للخصوصية.

لا لأن بمقدوره التشكي من أن الجوهر العادي للغائط قد أخفقَ جدياً على هذا الصعيد. لم يكن هناك تهدئة لأية نتيجة ما بين تعطل الحب –

الألم الصغير وانطلاق الألم اللاذع. في الحقيقة مهما كان ضيق الفسحة كان بإمكان أي أذن an ergo ملئها، فالطرفان كانا مشدودين أحدهما بالآخر بصورة جميلة. والآن في صميم مسار كآبته كابن آدم وبالتالي مُبتلى بعقل لا يود الخضوع لأوامره هو بالذات والذي كان يربط عتمة تاج تأمله بأسلوبه لم يحصل قط على نعمة بلوغ ذروة أي من سلاسل في تجربته السابقة للسوداوية. إيجابي مُتعالٍ معتم كهذا كان قد تشكل لكي يجسد أفضل العناصر المُختارة في كل ما كان قد ذهبَ سابقاً وأخذ طريقه المستقيم الذي كان بإمكانه من الوهلة الأولى الظهور باعتباره أطروحة شاملة. لا حاجة للقول إنه كان بمقدوره أن لا يكون من هذا النوع. لكن إذا ما تم النظر إليه في شبه ظل الفقرة التي يقذفها ويرجعها وينوح على نفسه لكي يخمدها ما كان بمقدوره إدخال أي تحسن.

كان ما يزال يطحن في رقم 2، بيديه الخلفيتين في الحضن وفي العجينة الورقية، وإذا به يشعر فجأة أنه كان هناك رجل خشن وحازم يقف أمامه ويقرر بصوته الكريه كأنه يطلق تحذيراً أخيراً جعله ينظر أمامه. كان ذلك حقيقياً تماماً. كان ناظر الرصيف، يبحث عما بإمكانه افتراسه. أعطى بيلكا اهتماماً لما كان قد قيل له، واستخرج في النهاية من ثراء المزبلة التي طلب منه ذلك الرجل الذهاب إليها.

«ابتعد عن دعامة جسري»، قال المفترس بخشونة، «ودعني أذهب إلى البيت لاحتساء الشاي». بدا ذلك كأنه جميل كفاية. بل إنه بدا طبيعياً بالنسبة لبيلكا أن يتكلم الرجل عن الساند القائم كملكيته. وإنه أكثر طبيعية في أن يرغب في تناول الشاي عند عودته إلى داره بعد يوم عمله.

«بالتأكيد، قال بيلكا، ينبغي عليَّ ترك الساند، كم كنتُ غافلاً. لكن أنا...» ثم بحث في جيب سرواله عن ستة الفلوس الصغيرة أو إذا ما أخفق عن فلس واحد، بعدها أخرج كل ما كان قد تركه – فلسان، وقفَ بيلكا بلا قبعة تحت رذاذ المطر أمام خصمه، وانسحب ذيل سترته الضيقة إلى الخلف، كما كانت بطانة الجيب التي فقدت لونها ناتئة بصورة لا يمكن التفكير بها. كانت لحظة مُحرجة تماماً.

«يمكنك ماذا»؟ قال المُفترس.

أحمر وجه بيلكا. لم يكن يعرف بأي اتجاه عليه أن ينظر. نزع نظارته في التباسه. لكن بطبيعة الحال كانت القضية تتعلق بغلق باب الإسطبل بعد سقوط الجواد المطهم. هل يمكنه إعطاء رجل ساخن كهذا فلسين؟

«يمكنني الاعتذار فقط». دمدمَ «لوضعك في مثل هذا العمل غير اللائق. صدقني، لم تكن لدي فكرة...»

تشاحن المفترس. كان التدخين ممنوعاً بكل أشكاله على الساند لكن البصاق قضية أخرى.

«ابتعد عن ساندي» قال بقصد «قبل جفاف البصقة».

فكر بيلكا أي تعبير خارق لرجل في محطته التي يستعملها. كان تطبيق المفردة خاطئاً، فكرَ، ثمة شيء ما خاطئ بالتأكيد في مكان ما من تلك الجملة. وفي مناخ كهذا كانت تبدو كأنها تدعوه إلى تأجيل رحيله حتى غريك كالندس Greek Kalends. مرت تلك التصورات عبر ذهنه حينما كان يمشي بسرعة نحو اليابسة نزولاً عن الرصيف مع الكابح القاسي الذي آلمَ بكعب قدميه. عندما صُفقَ الباب بهدوء من خلفه استدارَ لأنه كان يرغب في أن يقول للمفترس عبارة مساء الخير لطيفة. لقد اندهش وهو يرى الرجل يمس قبعته ويرد بكل لطف بمساء الخير مقتضبة. قفزَ قلب بيلكا قفزة كبيرة من الفرح.

«آه»، صرخَ «مساء الخير وسامحني، يا رجلي الطيب، أليس كذلك، أنا لا أقصد أية أذية».

لكن الاعتراف بالتحية اللطيفة والمقتضبة لرجل دمث شيء والتأفف التأفف المُرتجل كفعل صاعق آثم شيء مختلف تماماً. لذا فإن المفترس صلبَ قلبه واختفى نحو كوخه ولم يكن لبيلكا أي اختيار آخر سوى أن يعرجَ بعيداً بقدمه المحطمة بدون أي تساهل، مغفرة أو تشافٍ.

ليبارك الله والدي العزيز، صلى بغموض في تلك الليلة بدون سبب خاص قبل ذهابه إلى السرير، Mummy Johnny Bibbby (quondam

Nanny الآن أم ألف في بيت الحارس) **وكل ما أحبه وجعلني ولداً صالحاً ليسوع المسيح إكراماً لأرمن** Armen.

كان ذلك بمنزلة أزمة مسرحية catastasis علمته إياه مومي Mummy، جون أولاً، ثم بيل Bel، وهو من فوق ركبتها، حينما كانوا صغاراً. كان ذلك مُصليهم. ما جاء بعد ذلك هو للرب Lord's. كان مُصليهم صندوقاً صغيراً ظريفاً وصندوق الرب كان كبيراً ومعتماً. نزلتَ بالمصعد وكانت معدتك وحدها وردية الحوصلة. Ooaah.

صعدَ وذهب إلى الفراش وكان الشيطان الأزرق الذي طالما انتظر فرصة كهذه ذهبَ بجانبه وتمثله هناك وفي ما بعد وفي أغلب التعبيرات المُخادعة أنه كان أمراً لطيفاً عندما يتمكن ابن آدم من إبطال حب سمرالدينا – ريما أو أي بنت أخرى لذلك الغرض وإذا ما كانت القضية برمتها تتعلق بحب بنت مشدودة بحزامها تعني بالنسبة له كل ما كان يسرع بعمله كلما كان ذلك أفضل. لهذا تُوجَ في العتمة وتمتع بليلة رائعة. هكذا تلمس طريقه، كواحد يمشي تحت ضوء القمر في غابة، مع أنها ليلة مباركة بالنسبة لسهل أرضي غير منطقي للصباح. الخطيئة ممكنة الوجوب شريطة أنه كله سيكون جيداً، كل شيء سيكون جيداً وبكل الطرق ينبغي أن يكون الشيء جيداً.

قلق غروك... inquit Grock

بحرف استهلالي منخفض في سرداب بازيليكا سانت –سرنن Basilica Saint– Sernin في أجمل مدينة في تولوز Toulouse كان هناك نقش يُمثل جرذاً يقضم دربه داخل كرة. هل إن الجبن الألماني في خرافة لافونتين Fontain's fable في الطريق الخطأ المُنسحب عن هموم العالم؟ نحن لا نعتقد ذلك.

حقيقة الأمر هي أننا لا نعرف تماماً أين نحن في هذه القصة. من الممكن أن يكون البعض من مخلوقاتنا سيقيمون بالاستنتاج الصحيح ولا ينزعجون أكثر من ذلك. ومن المؤكد أن البعض الآخر لن يقوم بذلك. لنفترض أن نيمو Nemo واحد من أولئك الذين لن يفعلوا هذا. وأن جون، وغالبية